يوسف عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بيوسف عليه السلام	٨٤
ذكر يوسف عليه السلام في القرآن الكريم	٨٨
صفاته وأخلاقه عليه السلام	٨٩
يوسف عليه السلام وتعبير الرؤى	٩٥
يوسف عليه السلام مع والده	١٠٢
يوسف عليه السلام وإخوته	١٠٧
يوسف عليه السلام وامرأة العزيز	١١٧
يوسف عليه السلام في السجن	١٢٩
يوسف عليه السلام في الملك	١٣٥
الدروس المستفادة من قصة يوسف	١٤٦

التعريف بيوسف عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه عليه السلام:

هو نبي الله:يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم جميعًا الصلاة والسلام، قال النووي رحمه الله: وفي يوسف ست لغاتٍ ضم السين وكسرها وفتحها مع الهمز فيهن وتركه [1].

وهذا نسب معلوم مشهور وقد دل عليه القرآن والسنة وكفى بهما.

أما القرآن ففي قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:٦].

وقوله على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٣٨].

وأما في السنة: فحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام)[2].

وهو أحد أولاد يعقوب عليه السلام الاثني عشر ذكرًا.

أما أبوه: فهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، ويعقوب عليه السلام: هو إسرائيل [3] أبو بني إسرائيل الذي ينسبون إليه [4].

وكان أبوه من أنبياء الله الصالحين الذين اصطفاهم الله واجتباهم وأثنى عليه مع جملة من إخوانه الأنبياء فقال: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٥-٤٧].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١/ ٩٤، ٢/ ١٨٦، ١٥/ ١٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٩٠، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين).

(٣) إسرائيل: اسمٌ عجميٌ ممنوع الصرف للعلمية والعجمة، وقد ذكروا أنه مركبٌ من إسرا: وهو العبد، وإيل: اسمٌ من أسماء الله تعالى، فكأنه عبد الله، وذلك باللسان العبراني، فيكون مثل: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: معنى إسرا: صفوةٌ، وإيل: الله تعالى، فمعناه: صفوة الله.
انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٢٧٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٣٠.

وقال عنه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام:٨٤].

وقال: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم:٤٩-٥٠].

وقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء:٧٢-٧٣].

وقد أعطاه الله علمًا وبصيرة في تعبير الرؤى، وقال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨].

وأما أمه: فلم يرد ذكر اسمها في الكتاب أو السنة، والصحيح أنها عاشت وحضرت أحداث قصته خلافا لمن قال بوفاتها قبل ذلك، وهذا هو الذي يدل عليه ظاهر القرآن حيث قال في رؤياه في بداية قصته: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [يوسف:٤].

وفسرت الشمس بأمه، وقال سبحانه في نهاية قصته: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

وإذا أطلق الأبوان فالمراد بهما الأب والأم حقيقة إلا إذا وجدت قرينة صارفة ولا قرينة ههنا.

قال أبو جعفر ابن جرير الطبري: وأولى القولين في ذلك بالصواب ما قاله ابن إسحاق بأن المراد بأبويه:أبوه وأمه؛ لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في«أبوين»، إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب التسليم لها، فيسلم حينئذ لها [(١)].

وقال الحافظ ابن كثير قال ابن جريرٍ: ولم يقم دليلٌ على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق [(٢)].

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

يوسف عليه السلام هو النبي الخامس المنحدر من سلالة الخليل إبراهيم عليه السلام، ويعتبر يوسف عليه السلام من أوائل أنبياء بني إسرائيل بل لعله أولهم بعد أبيه، لأن أباه يعقوب هو إسرائيل الذي تنسب إليه بني إسرائيل وأنبياؤهم من نسله، كموسى وهارون

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٦٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٢.

وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم، وقد جاؤوا بعد يوسف كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم حين قال في سياق قصة موسى عليه السلام مع فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر:٣٤].

وقد نشأ في حضن أبيه وعاصر إخواته وحصل منهم تجاهه ما قصه القرآن، وقد عاصر أيضًا أممًا أخرى، ودعاهم إلى الله تعالى، فقد نشأ في الشام، وانتقل إلى مصر حين بيع بها رقيقًا ظلما وعدوانًا، ثم استقر له بها المقام بعد أن من الله عليه بالبراءة والنجاة من تلك المحن، ورفع من قدره، وآلت إليه أمور الملك، وجاء بوالديه وإخوته فأقاموا معه بمصر، ولا زال بها حتى توفاه الله تعالى.

ثالثًا: مكانته عليه السلام:

يوسف عليه السلام نبي من أنبياء الله، اصطفاه الله واجتباه، ورفع مكانته، ومن ملامح ذلك:

١. أنه أنزلت في شأنه سورة كاملة سميت باسمه وهي سورة يوسف، وتكرر ذكر اسمه فيها أربعًا وعشرين مرة، ولم تذكر قصته في غيرها، ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر[1].

٢. أثنى الله تعالى عليه في هذه السورة ووصفه بالإخلاص وأضافه إليه في زمرة عباده فقال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

٣. أثنى عليه في جملة من الأنبياء والمرسلين وقال عنهم: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٣-٨٦]، فقوله: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يشمل جميع المذكورين من إسحاق إلى هنا[2].

٤. لطف الله به وتولاه بعنايته في قصته والمحن التي مر بها؛ حيث حفظه في البئر وأمنه،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٩٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٤٣.

وهيأ له أن يكون في مصر في بيت العزيز مكرمًا، وعصمه من فتنة النساء، وصبره في السجن، وبرأه مما اتهم به، وأنجاه من السجن، وأعطاه الملك، وجمع شمله بأبيه بعد حين من الدهر، كما سيأتي تفصيل ذلك.

٥. قال النبي صلى الله عليه وسلم منوها بمكانته: (لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي)[١].

٦. قوله صلى الله عليه وسلم هذا فيه ثناء على يوسف عليه السلام وبيانٌ لصبره وتأنيه، والمراد بالداعي رسول الملك الذي أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:٥٠].

فلم يخرج يوسف صلى الله عليه وسلم مبادرًا إلى الراحة ومفارقة السجن الطويل؛ بل تثبت وراسل الملك في كشف أمره الذي سجن بسببه ولتظهر براءته، وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه ما قاله تواضعًا وإيثارًا للإبلاغ في بيان كمال فضيلة يوسف عليه السلام والله أعلم[٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٧٢، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عز وجل: (ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه)، ومسلم في صحيحه، رقم ١٥١، في الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب.
(٢) انظر شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ١٨٥.

ذكر يوسف عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر يوسف عليه السلام في القرآن الكريم (٢٧) مرة في سورتين[(١)] .

وأما قصته عليه السلام فقد ذكرت في سورة واحدة حملت اسمه عليه الصلاة والسلام.

(١) المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، مركز تفسير، ٢/ ١٤٤٢ .

صفاته وأخلاقه عليه السلام

أولًا: صفاته الخَلْقية:

يوسف عليه السلام ميزه الله وأكرمه بجملة من محاسن الصفات الخلقية، وأكتفي بأبرزها وهو: **جمال خلقته.**

فقد كان نبي الله يوسف عليه السلام من أجمل خلق الله ومن أحسنهم وجهًا، وصار جماله مضرب المثل [1]، وقد دل على جمال صورته القرآن والسنة.

أما القرآن: فقد ذكر في قصته ما حصل من افتتان امرأة العزيز به بسبب جماله حتى راودته عن نفسه واستعانت عليه بالنسوة فلما رأينه ذهلن من جماله وقطعن أيديهن وهن لا يشعرن، وعبرن عن دهشتهن من جماله وشبهنه بالملائكة كما حكى ذلك القرآن حيث قال: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

وأما السنة: فما أخرجه مسلم في صحيحه من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء، وفيه: **(فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، إذا هو قد اعطي شطر الحسن)** [2].

وقوله: **(قد أعطي شطر الحسن)** في معناه أقوال للعلماء، منها: أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري [3].

ومنها: أن المراد أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا صلى الله عليه وسلم [4].

ومنها: أن المراد بـ **(شطر الحسن)**: نصف جنس الحسن مطلقًا، أو نصف حسن جميع أهل زمانه [5]. وأيا ما كان المعنى المراد بشطر الحسن فالمقصود أن الله أعطاه جمالًا في الصورة.

ثانيًا: صفاته الخُلُقية:

نبي الله يوسف عليه السلام كان متحليًا بمحاسن الأخلاق و جميل الصفات وكريم الخصال كحال إخوانه من الأنبياء والمرسلين، ومن خلال التأمل في سيرته يمكن استخلاص جملة من هذه الصفات، ومنها:

١. الإخلاص.

(١) وكان عمر رضي الله عنه يقول: جرير بن عبد الله يوسف هذه الأمة، يعني: في حسنه. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ١/ ٢٣٨..

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٦٢، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات.

(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/ ٢١٠.

(٥) مرقاة المفاتيح ٩/ ٣٧٦٦.

وقد شهد له بذلك رب العالمين جل جلاله حين قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

وهو من أسباب عصمته من الفاحشة، «فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب السليم أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاص الدين له»[(١)].

٢. الكرم.

وقد دل على ذلك القرآن الكريم، ونصت عليه السنة النبوية، فقد تجلى كرمه في السجن في تعامله مع السجناء وإحسانه إليهم حتى وصفوه بالإحسان وقالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

وتجلى كرمه حين ولي الملك وصار يوزع القوت على الناس ويجود به عليهم وقال عن نفسه: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ [يوسف:٥٩].

وحين عفا عن إخوته مع قدرته على الانتقام ولا يفعل ذلك إلا الكرام، وغير ذلك من صور كرمه.

وقد شهد له بهذا الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ثبت في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام)[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم) فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) وفي لفظ عند البخاري: قال: (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أكرم؟ قال: (أكرمهم عند الله أتقاهم) قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: (فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله)، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فعن معادن العرب تسألوني؟) قالوا: نعم. قال: (فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)[(٣)].

قال النووي: «قال العلماء وأصل الكرم كثرة الخير، وقد جمع يوسف صلى الله عليه وسلم مكارم الأخلاق مع شرف النبوة

(١) العبودية، ابن تيمية ص ١٢٣.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٥٣، في الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٣٧٨، باب من فضائل يوسف عليه السلام.

مع شرف النسب، وكونه نبيًا ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله صلى الله عليه وسلم، وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة، وحياطته للرعية، وعموم نفعه إياهم، وشفقته عليهم، وإنقاذه إياهم من تلك السنين، والله أعلم[(١)]».

وكرم يوسف عليه السلام كرم أصيل في النفس، موروث من أجداده، فجده الخليل عليه السلام هو مكرم الضيفان؛ وإذا كان الأصل طيبًا كان الفرع كذلك.

٣. الصدق.

حتى صار من معه في السجن يخاطبه بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦].

أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله[(٢)].

«وإنما وصفه به عن خبرةٍ وتجربةٍ اكتسبها من مخالطة يوسف عليه السلام في السجن»[(٣)].

وشهدت له بذلك امرأة العزيز أمام الملإ حين قالت: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

٤. الأمانة.

وأعظم ما تجلت في كفه عن الفاحشة، وعدم خيانته لله تعالى ولا لزوج المرأة، وقد قالت امرأة العزيز عند ساعة البراءة: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

ثم قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف:٥٢].

وكذلك أمانته في المال وقوله للملك ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف:٥٥].

٥. العفة.

في قصة يوسف عليه السلام يتجلى تمام عفته عليه السلام؛ حيث كف عن الشهوة المحرمة وعن جريمة الزنى مع توفر الأسباب والدواعي، بل بمجرد أن ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ﴾ ودون تردد ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣].

ولما أرادت أن تجبره على ذلك هرب منها ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف:٢٥].

بل إنه لما تمالأ عليه النسوة اختار السجن على فعل الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٣-٣٤].

قال الحافظ ابن كثير: «وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرياسة

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/ ١٣٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٩٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٨٥.

ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك؛ خوفًا من الله ورجاء ثوابه»[١].

بل من عجيب أمره أنه يدعى إلى الخروج من السجن فيأبى ويرفض الخروج إلا بعد ثبوت براءته وتطهير سمعته ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف:٥٠].

فأي عفة هذه؟!

٦. **العفو والصفح.**

وهذا من أعظم ما تجلى من خلق يوسف عليه السلام في قصته مع إخوته، فبعد كل الأذى الذي لحق به منهم: كالهم بقتله وإلقائه في البئر والتفريق بينه وبين أبيه، والتسبب في تلك المحن المتتالية: محنة البئر ومحنة الرق ومحنة فتنة المرأة ومحنة السجن؛ لكنه مع كل ذلك عفا عنهم وسامحهم وهو في موقع قوة ولو شاء أن ينتقم لانتقم ولكنه لم يفعل، بل قال تلك الكلمة العظيمة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩٢].

فضرب أروع الأمثلة في العفو والصفح.

٧. **الصبر.**

تجلى ذلك في صبره على أذى إخوته وعفوه عنهم وقوله لهم مبينا فضل الصبر: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠].

وتجلى ذلك أيضًا في صبره عن المعصية وكف نفسه عن الشهوة مع توفر الأسباب والدواعي بل ووجود المغالبة، وفي صبره في السجن حتى عندما عفي عنه وطلب من الخروج من السجن لم يستعجل للخروج بل بقي حتى ثبتت براءته، وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على صبره وقال منوها بشأنه: (**ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي**)[٢].

قال ابن الجوزي: قرأت سورة يوسف عليه السلام فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره، وشرح قصته للناس، ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملت خبيئة الأمر،فإذا هي مخالفة للهوى المكروه، فقلت: وا عجبًا! لو وافق هواه من كان يكون؟! ولما خالفه، لقد صار أمرًا عظيمًا، تضرب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة، فيا له عزًا وفخرًا، أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب[٣].

٨. **الشكر.**

كان من صفاته عليه السلام شكر الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص ٢٢٨.

على نعمه ورد الفضل إليه، تجلى ذلك في قوله للسجينين: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٣٧].

وفي قوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف:٣٨].

وفي قوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١].

٩. التواضع.

وهذا واضح من خلال الآيات السابقة ورده الفضل دائمًا إلى الله تعالى لا إلى نفسه، ومن خلال تواضعه لوالديه، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠].

وعدم نسيانه للسجن حتى وهو في الملك حيث قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠].

١٠. العلم.

علم الوحي وعلم تعبير الرؤى وعلم سياسة الناس وغيره.

قال عنه الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف:٢١-٢٢].

وقال هو عن نفسه مخاطبًا الفتيين في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٣٧].

١١. الإحسان.

شهد له بذلك رب العزة جل وعلا حيث قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف:٢٢].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف:٥٦].

ووصفه بذلك أهل السجن حين قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

ووصفه بذلك إخوته حين قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨].

١٢. العدل.

تجلى ذلك من خلال سياسته في الملك وعدله في توزيع الطعام بين الناس في سني الجدب وإعطائه لكل واحد حمل بعير لا يزيد عليه، ومن خلال قوله لإخوته لما طلبوا منه أن يأخذ واحدًا منهم بدلًا من أخيه الذي وجد المتاع في رحله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف:٧٩].

١٣. حفظ الجميل.

حيث حفظ جميل العزيز وإحسانه إليه؛

فلم يخنه من ورائه، وذكر ذلك لامرأته لما راودته ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

فقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ قصده العزيز، «فذكر عنوان الربوبية هنا دون السيادة؛ لما فيه من الاعتراف بالمعروف والفضل، وهذا دليل على أن من المروءة ورفيع الأخلاق أن يحفظ الإنسان حق من أحسن إليه، فضلًا عن أن يخونه، والسياق دال على أن المراد هو من رباه وقال:أكرمي مثواه، لا خالقه؛ لأنه المتبادر إلى مفهوم المرأة المتلقية للخطابة»[1].

١٤. الغيرة على دين الله.

حتى إنه مارس الدعوة وهو داخل السجن، وقال منكرًا على من عبد غير الله ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف:٣٩].

١٥. الأناة.

وهذا واضح من خلال امتناعه عن الخروج من السجن- حين طلب منه ذلك- حتى تثبت براءته، وحين تأني في الإتيان بوالديه وضم الأسرة إليه؛ ليكون ذلك على أحسن حال وأنسب وقت، وغير ذلك.

هذا ما بدا لنا من صفات يوسف وأخلاقه من خلال التأمل في قصته والآيات والأحاديث الواردة في شأنه، وأسأل الله العفو والمغفرة عن أي خطإ أو زلل.

(١) ليدبروا آياته، ٢/ ٣١١.

يوسف عليه السلام وتعبير الرؤى

أولًا: تعليم الله إياه تعبير الرؤى:

برع يوسف عليه السلام في تعبير الرؤى وتفسير الأحلام[١]، فكان إذا عبر الرؤيا وقعت كما عبرها، وقد كان ذلك بتعليم الله تعالى له، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٢١].

وقال له والده: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦].

وقال هو عن نفسه: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١].

فقد بين الله جل وعلا أنه علم نبيه يوسف عليه السلام من تأويل الأحاديث، وتأويل الأحاديث هو: تعبير الرؤيا[٢].

قال القرطبي: وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وقيل: أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد»[٣].

ثانيًا: رؤيا يوسف عليه السلام:

تبدأ قصة يوسف عليه السلام ورحلته مع الرؤى من الرؤيا التي رآها في المنام وهو صغير؛ فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمرًا من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلًا لأمره، واستعدادًا لما يرد على العبد من المشاق؛ لطفًا بعبده؛ وإحسانا إليه[٤].

قال الطاهر ابن عاشور: وابتداء قصة يوسف عليه السلام بذكر رؤياه إشارةٌ إلى أن الله هيأ نفسه للنبوءة فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها (**أن أول ما بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح**)[٥].

وفي ذلك تمهيدٌ للمقصود من القصة وهو تقرير فضل يوسف عليه السلام من طهارةٍ وزكاء نفسٍ وصبرٍ؛ فذكر هذه الرؤيا

(١) قال القرطبي: وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، أي: الرؤى، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك، وكان الصديق رضي الله عنه من أعبر الناس لها، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم، والطبع والإحسان، ونحوه أو قريبٌ منه كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا.
انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٩٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٠، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي برسول الله صلى الله عليه وسلم.

في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة، وجعل الله تلك الرؤيا تنبيهًا ليوسف عليه السلام بعلو شأنه ليتذكرها كلما حلت به ضائقةٌ فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبةٌ[1].

ولما رأى يوسف عليه السلام تلك الرؤيا قصها على والده يعقوب عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف:٤].

ففهم أبوه تأويل هذه الرؤيا، وأولها بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعًا له فيها[2].

ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦]. أي: كما أراك ربك، هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدةً لك، فكذلك يختارك ويصطفيك لنبوته.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه أحاديث الأمم والكتب السماوية ونحوها.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: بالنبوة، وما انضاف إليها من سائر النعم.

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: يجعل فيهم النبوءة، إضافة إلى ماينالهم من النعم بسببك.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ حيث أنعم عليهما بإنعامات كبيرة أعظمها النبوة والرسالة، «وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جدًا وهو إبراهيم؛ لأن الجد أبٌ»[3].

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ أي: بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في تدبيره فيضع كل شيء في موضعه فيكرم من هو أهل للإكرام، ويحرم من هو أهل للحرمان[4].

ولما بان تعبيرها ليوسف، نهاه أبوه أن يخبر بها إخوته؛ لئلا يحسدوه، وقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥]. أي: حسدًا من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:٥]. أي: بين العداوة، لا يفتر عنه ليلًا ولا نهارًا، ولا سرًا ولا جهارًا، فالبعد عن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٠٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٩٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٣، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٥٩٤.

الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى[(١)].

قال الشوكاني: «كأن يوسف عليه السلام قال: كيف يقع منهم؟! فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك؛ لأنه عدوٌ للإنسان مظهرٌ للعداوة مجاهرٌ بها»[(٢)].

وظاهر الآية أن يوسف عليه السلام لم يقص رؤياه على إخوته وهو المناسب لكماله الذي يبعثه على طاعة أمر أبيه[(٣)]، قال السعدي: «فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم»[(٤)].

قال القرطبي: «هذه الآية أصلٌ في ألا نقص الرؤيا على غير شفيقٍ ولا ناصحٍ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها»[(٥)].

وقد وقع تفسير هذه الرؤيا كما رآها يوسف عليه السلام بعد فترة من الزمن- وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠].

وقد قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: رؤيا الأنبياء وحيٌ[(٦)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢١٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠.

ثالثًا: تعبيره لرؤيا صاحبي السجن:

من نماذج تعبير يوسف عليه السلام للرؤى وعلمها بها: ما كان من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن أثناء فترة وجوده في السجن؛ حيث إنهما رأيا منامًا فسألاه عن تعبيره لما رأيا عليه من سيما الصلاح، فكان من الأمر ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف:٣٦] أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها.

فـ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: أعصر عنبًا ليكون خمرًا.

﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتفسيره وما يؤول إليه أمرهما.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه[(٧)].

قال ابن كثير: «والمشهور عند الأكثرين والذي يدل عليه ظاهر السياق: أنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره، خلافا لمن قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، إنما كانا تحالما ليجربا عليه»[(٨)].

(٧) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦١١.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.

فأخبرهما بأنه عارف بتعبير الرؤى وأن ذلك بتعليم الله إياه ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال لأهل التفسير كلها تحتملها الآية:

القول الأول: أن يوسف عليه السلام قال للفتيين: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا﴾ أيها الفتيان في منامكما ﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ في يقظتكما ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ ويعنى بقوله: ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾: ما يؤول إليه؛ فهو يخبرهما أنهما مهما رأيا في نومهما من حلمٍ، فإنه عارفٌ بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه[١].

والقول الثاني: أنه وعدهما بأنه يعبر لهما رؤياهما غير بعيدٍ، وجعل لذلك وقتًا معلومًا لهما، وهو وقت إحضار طعام المساجين، يقول: لا يأتيكما غداؤكما، أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبأتكما بتأويله -أي: بتأويل ما رأيتما في منامكما- قبل أن يأتيكما طعامكما، ووصف الطعام بجملة ﴿تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ تصريحٌ بالضبط بأنه طعامٌ معلوم الوقت[٢].

القول الثالث في الآية معناه: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ في السجن إلا أخبرتكما بماهيته قبل مجيئه حلوًا وحامضًا وغيره كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩][٣].

وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه، بل جعله عليه السلام مقدمةً قبل تعبيره لرؤياهما بيانًا لعلو مرتبته في العلم، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظنٍ وتخمينٍ؛ وإنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر[٤].

ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٣٧]. أي: هذا إنما هو من تعليم الله إياي[٥].

والأقرب القول الثالث: وهو أنه يخبرهما بماهية طعامهما وحقيقته قبل مجيئه إليهما وذلك بتعليم الله إياه، كحال عيسى عليه السلام.

وقوله في الآية: ﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ يدل على أنه طعام حقيقة لا منامًا، والضمير في قوله: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ يرجع إلى أقرب مذكور وهو الطعام. والله أعلم.

ثم عبر لهما ما رأيا فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٠٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٢/ ٢٧١، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.

(٣) نظر قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩١.

(٤) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.

﴿ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف:٤١].

وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، فإنه يخرج من السجن ويسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن، ولكنه لم يعينه لئلا يَحْزَنَ ذَاكَ؛ ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ [يوسف:٤١][1].

فإنه عبر عن الخبز الذي تأكله الطير، بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل تتمكن الطيور من أكله[2].

ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقعٌ لا محالة ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١] لأن الرؤيا على رِجْلِ طائرٍ ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت، كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم: (الرؤيا على رجل طائرٍ ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت)[3][4].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦١٨٢، والترمذي في سننه، رقم ٢٢٧٨ و ٢٢٧٩، أبواب الرؤيا، باب ما جاء في تعبير الرؤيا، وأبو داود في سننه، رقم ٥٠٢٠، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.

رابعًا: تعبيره لرؤيا الملك:

أيضًا من نماذج تعبير يوسف عليه السلام للرؤى وعلمه بها تعبيره لرؤيا الملك-ملك مصر- والتي كانت بتدبير الله تعالى؛ لتكون سببًا لرفعة شأنه وخروجه من السجن.

وكان من تفاصيلها ما حكاه الله بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف:٤٣]. جمع عجف، وهي المهازيل[5].

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ وقد أهمه أمر هذه الرؤيا فقصها على علماء قومه وكبراء دولته، وسألهم عن تأويلها، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣].

فتحيروا ولم يعرفوا لها وجهًا ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:٤٤].

والأضغاث[6]: الأخلاط، أي: أخلاط أحلامٍ من الليل لعلها لا تعبير لها،ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾[7].

(٥) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٢٥.
(٦) الأضغاث:جمع ضغث، والضغث أصله الحزمة من الحشيش، يشبه بها الأحلام المختلطة التي لا تأويل لها.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١١٨.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٤، ٦٢٥، قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٣٣١.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، بما ليس بعذر، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس فإنا لا نعبرها.فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا[(١)].

ولما سمع الفتى - الساقي الذي نجا- هذه المقالة من الملك ومراجعة أصحابه، تذكر يوسف وعلمه بتأويل الرؤى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ [يوسف:٤٥].

أي: من الفتيين، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه فنسي ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

أي: تذكر يوسف عليه السلام بعد مدة من الزمن وهي بضع سنين، وتذكر ما جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا، فطلب منهم إرساله إليه ليأتيهم بتأويل هذا المنام، وقال لهم: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:٤٥].

فأرسل إليه فجاءه وخاطبه قائلًا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف:٤٦].

فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهمتهم، فأجابه يوسف عليه السلام لما طلب وعبرها له فـ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف:٤٧].

أي: متواليةً متتابعةً على عادتكم[(٢)].

والمعنى: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متوالياتٍ، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:٤٧].

أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فاتركوه في سنبله؛ ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلًا قليلًا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف:٤٨].

أي: مجدبات صعاب وهن سنون

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

(٢) قال ابن عطية: والدأب، بسكون الهمزة وفتحها، مصدر دأب يدأب، إذا لازم فعل شيءٍ ودام عليه مجتهدًا فيه، ويقال للعادة: دأبٌ.
انظر: المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

المَحْلِ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف:٤٨].

أي: إلا يسيرًا مما تحرزونه وتدخرونه[(١)].

فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجدبات، قال السعدي: «ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجدب لما كان الحرث مبنيا عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك، وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجدب[(٢)].

ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩].

أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتكثر الغلات، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها[(٣)].

قال ابن جرير: وهذا خبرٌ من يوسف عليه السلام للقوم عما لم يكن في رؤيا ملكهم، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله دلالةً على نبوته وحجة على صدقة[(٤)].

وقال السعدي: «ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك؛ لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جدًا، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح»[(٥)]. وكان ذلك سببًا في خروجه من السجن.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٤، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٤٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٤، قصص الأنبياء، ص ٣٣٢.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٢٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

يوسف عليه السلام مع والده

أولًا: مكانة يوسف عليه السلام عند والده:

كان يوسف عليه السلام أحب إخوته إلى أبيه أثيرًا عنده مقربا لديه، فكان يعقوب عليه السلام يحبه حبًا شديدًا ولا يقوى على فراقه؛ «لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخُلُقِ والخَلْقِ، صلوات الله وسلامه عليه [(١)]».

وقد نشأ يوسف عليه السلام في كنف والده، يشاوره في أموره ويسر إليه بما يحدث له، ومن ذلك قصة الرؤيا التي رآها؛ إذ رأى وهو صغيرٌ كأن أحد عشر كوكبًا، وهم إشارةٌ إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارةٌ عن أبويه قد سجدوا له، فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلةً عاليةً ورفعةً عظيمةً في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته؛ كيلا يحسدوه، ففعل [(٢)].

وقد كانت محبته ليوسف وأخيه«أمرًا لا يملك صرفه عن نفسه؛ لأنه وجدانٌ ولكنه لم يكن يؤثرهما عليهم في المعاملات والأمور الظاهرية» [(٣)].

وهذا الحب من يعقوب عليه السلام لابنه يوسف دفع إخوته إلى حسده والتآمر عليه؛ حتى فرقوا بينه وبين أبيه.

ثانيًا: محنة الفراق:

من أصعب المحن التي مرت على يعقوب عليه السلام: محنة التفريق بينه وبين حبه وفلذة كبده يوسف عليه السلام، حين تآمر عليه إخوته، وتحايلوا على أبيهم، وزعموا أنهم يريدون اصطحابه معهم للعب، وتعهدوا بحفظه، والنصح له، ولكن كان التخطيط غير ذلك، فذهبوا به وألقوه في البئر ورجعوا بدونه، زاعمين أنه أكله الذئب وبدأت رحلة المعاناة للابن والأب:

أما الابن: فقد تعرض لأربع محن عظيمة، وهي محنة الإلقاء في البئر، ومحنة البيع رقيقًا ظلما وعدوانًا، ومحنة فتنة المرأة، ومحنة السجن؛ ولكن الله لطف به في هذه المحن كلها، ونجاه منها جميعها، وكانت عاقبته رفعة المنزلة في الدارين، وقد بين طريق الوصول إلى مثل ذلك حين قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠].

وأما الوالد: فقد كان ألم الفراق بالنسبة له عظيما وكان وقعه عليه شديدًا، فلم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٢.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٢١.

يصدق أبناءه حينما جاءوا عشاءً يبكون وزعموا أنه أكله الذئب، ولطخوا قميصه بالدم المكذوب، ولم يرج هذا الصنيع عليه، بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:١٨].

ثم لجأ إلى الله في كشف محنته وتحلي بالصبر الجميل وردد قائلًا: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

أي: فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه[١]، تمامًا كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

وقد اشتد حزنه العميق على فقد يوسف عليه السلام، ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، فجدد الحزن الجديد الحزن القديم، حتى ذهب بصره أو كاد؛ من الحزن وكثرة البكاء كما قال جل و علا: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤][٢].

ولكنه عليه السلام لم يفقد الأمل في اللقاء بيوسف مجددًا، بل كان عنده يقين بذلك؛ ولهذا لما جاءه أولاده بخبر فقد أخيهم الآخر -شقيق يوسف- خاطبهم قائلا: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:٨٣].

ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخوه الشقيق، وأخوهم الكبير الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يقدر الله له المجيء وحده، أو مع أخيه؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:٨٣].

أي: ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره[٣].

هكذا قالها يعقوب عليه السلام بكل يقين وحسن ظن بالله.

ثم أعرض عن بنيه كما قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾وذلك لما جاؤوا من غير أخيهم وأخبروه الخبر، وقد ساء ظنه بهم ولم يصدق قولهم، وجعل يتفجع ويتأسف ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يا حزناه على يوسف، والأسف أشد الحزن ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤].

أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد[٤]،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٢.

(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١١، وفتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٣، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٣.

(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٥٠٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٧١.

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿قَالُوا﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مشرفًا على الهلاك لطول مرضك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥].

أي: الموتى، يقولون: لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك أو تهلك، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك [١].

فأجابهم يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف:٨٦].

يقول لهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ أي: ما أبث من الكلام ﴿وَحُزْنِي﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع، ولابد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى [٢].

ثم أمر أولاده بالذهاب للبحث والتفتيش عن يوسف عليه السلام وعدم اليأس والقنوط من ذلك؛ فإن اليأس ليس من صفة المؤمن ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: اطلبوا خبرهما، واستقصوا، ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أي: رحمته؛ فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين، ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله [٣]. فلم يخيب الله ظنه بل حقق له ما رجاه.

ثالثًا: اجتماع الشمل:

وبعد طول فراق -امتد لعدة سنين قيل: ثمانين سنة. وقيل: أربعين. وقيل غير ذلك، وهي لا تقصر [٤] عن خمسة عشر عامًا- يجتمع الشمل، ويحقق الله الرجاء، ويجمع الله بين يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام.

لما جاء إخوة يوسف في المرة الأخيرة لشراء الطعام من مصر وتعرف عليهم يوسف عليه السلام، أعطاهم قميصه وأمرهم أن يضعوه على عيني أبيه فإنه يرجع إليه بصره، بإذن الله، قال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٦، تفسير الجلالين، ص ٣١٦.

(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤، وتفسير الجلالين، ص ٣١٦.

(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١١.

﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٣].

قال السعدي: لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم أراد أن يشمه فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر (١).

قال ابن كثير: وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات (٢).

وأمرهم أيضًا أن يأتوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مص؛ ليجتمع الشمل بعد الفرقة، ويزول عنهم ضنك الرزق قال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف:٩٣].

وحصلت معجزة أخرى وهي إيصال الله تعالى ريح يوسف عليه السلام لأبيه من مكان بعيد، فما أن خرجت العير -القافلة- من أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين حتى شم يعقوب عليه السلام ريح القميص، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف:٩٤].

أي: تسخرون مني، وتقولون إنما قلت هذا من الفند، وهو الخرف وكبر السن، فوقع ما ظنه بهم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف:٩٥].

أي: في حبك القديم ليوسف (٣)، قال قتادة: «أي: من حب يوسف لا تنساه، قالوا لوالدهم كلمةً غليظةً لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله صلى الله عليه وسلم» (٤).

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو المبشر برسالة يوسف ﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي: بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرًا بعدما كان ضريرًا، فقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦].

أي: أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف؛ لأن رؤيا يوسف كانت صادقة، وكان الله قد قضى أن أَخِرَّ أنا وأنتم له سجودًا، فكنت موقنًا بقضائه، ولا تعلمون أنتم من ذلك ما أعلمه (٥).

هنا شعر الأبناء بالحرج من جراء ما اقترفوا ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف:٩٧].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٦، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٦.
(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٠، جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٥٨-٢٦٠.

فعفا عنهم و ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف:٩٨].

وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل؛ ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة[(١)].

فارتحل يعقوب عليه السلام ومن معه إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ وهما أبوه وأمه على الصحيح، أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام والتبجيل والإعظام شيئًا عظيمًا ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] من جميع المكاره والمخاوف[(٢)].

ومن أدبه مع والديه واحترامه لهما لم يجلسهما على الأرض ويجلس هو على سرير الملك بل أجلسهما معه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو سرير الملك ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي: أبوه، وأمه وإخوته، وقد كان ذلك جائزًا في شريعتهم لكنه منع في شريعتنا.

قال ابن عطية: «وأجمع المفسرون أن ذلك السجود- على أي هيئة كان- فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة»[(٣)] ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى سجودهم له: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ حين رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر لي ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام، بل تحققت ووقعت كما رأيتها[(٤)].

ثم رد الفضل في ذلك كله إلى الله وأنه هو الذي حفظه ونجاه وجمع شمله به بهم بعد طول فراق ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٨١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.

يوسف عليه السلام وإخوته

يقول الله تعالى عن يوسف وإخوته: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف:٧].

أي: عبر ومواعظ، لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا بالقصص والبينات[1].

وعن سبب نزولها قال أبو حيان الأندلسي: وسبب نزولها أن كفار مكة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر فنزلت. وقيل: سببه تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يفعل به قومه بما فعل إخوة يوسف به. وقيل: سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحدثهم أمر يعقوب وولده، وشأن يوسف. وقال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن فتلاه عليهم زمانًا فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت[2]. ويمكن إجمال القول عن يوسف عليه السلام مع إخوته فيما يلي:

١. عددهم.

كان ليعقوب عليه السلام من البنين اثنا عشر ولدًا ذكرًا، وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم يوسف عليه السلام[3]، وقد جاءت الإشارة إليهم في آية الرؤيا حين قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:٤].

وقد كان أحدهما شقيقا ليوسف والبقية إخوته لأبيه كما يشير إلى ذلك قولهم المذكور في الآية: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف:٨].

فقولهم ﴿وَأَخُوهُ﴾ أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة[4].

٢. أسماؤهم.

لم يرد ذكر أسمائهم في شيء من القرآن أو صحيح السنة سوى يوسف عليه السلام، وقد اشتهر عند المؤرخين والمفسرين بأن أخاه الشقيق يقال له: (بنيامين) وقد جاء في حديث مرفوع ذكر أسمائهم لكنه لم يصح[5].

٣. القول بنبوتهم.

اختلف العلماء في نبوة إخوة يوسف عليه السلام: فذهبت طائفة إلى أنهم كانوا أنبياء، وأنهم هم أسباط بني إسرائيل المذكورون في القرآن في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ

(١) المصدر السابق ص ٣٩٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٣٤.
(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٣٠٩.
(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠، الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، الشوكاني ص٤٦٣.

﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦].

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء:١٦٣].

فقد عطفهم الله على يعقوب عليه السلام وأخبر أنه أوحى إليهم، وأما ما حصل منهم تجاه أخيهم فقد كان قبل نبوتهم، وقد تابوا منه فتاب الله عليهم وأوحى إليهم بعد ذلك[١].

وذهب فريق إلى أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء؛ لعدم ورود دليل صريح على ذلك؛ ولأن ما قاموا به نحو أخيهم لا يتناسب مع مقام النبوة.

قال الحافظ ابن كثير: «وقد ذهب طائفةٌ من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبيٌّ غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم، وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول، ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦] وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقويٍّ؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء ، وما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه ما نص على واحدٍ من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه»[٢].

قال القرطبي تعليقًا على تآمرهم عليه: وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولًا ولا آخرًا؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلمٍ، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصيةً ثم تابوا[٣].

قال أبو محمد ابن حزم: «إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء، ولا جاء قط في أنهم أنبياء نص: لا من قرآن، ولا من سنة صحيحة، ولا من إجماع، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم، وأما يوسف صلى الله عليه وسلم فرسول الله بنص القرآن.

قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر:٣٤].

وأما إخوته فأفعالهم تشهد أنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم فكيف أن يكونوا أنبياء؟! ولكن الرسولين أباهم وأخاهم قد استغفرا لهم، وأسقطا التثريب

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٨، الرسل والرسالات، الأشقر، ص ١٩.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٣٠٩.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٤٧، ٢/ ٦١١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٣٣.

عنهم؛ ولقول الله تعالى حاكيًا عن الرسول أخيهم عليه السلام أنه قال لهم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف:٧٧].

ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء، نعم ولا لقوم صالحين، إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس؛ لأن الصالحين ليسوا شرا مكانا وقد عق ابن نوح أباه أكثر مما عق به أخوة يوسف أباهم إلا أن إخوة يوسف لم يكفروا، ولا يحل لمسلم أن يدخل في الأنبياء من لم يأت نص ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوته.

فإن ذكروا في ذلك ماروي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو زيد بن أرقم: إنما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد الأنبياء أنبياء، فهذه غفلة شديدة وزلة عالم من وجوه:

أولها: أنه دعوى لا دليل على صحتها.

وثانيها: أنه لو كان ما ذكر لأمكن أن ينبأ إبراهيم في المهد كما نبيء عيسى عليه السلام، وكما أوتي يحيي الحكم صبيًّا، فعلى هذا القول لعل إبراهيم كان نبيًّا، وقد عاش عامين غير شهرين، وحاشا لله من هذا.

وثالثها: أن ولد نوح كان كافرًا بنص القرآن، فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيًّا، وحاشا لله من هذا.

ورابعها: لو كان ذلك لوجب ولابد أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم، بل جميع أهل الأرض أنبياء؛ لأنه يلزم أن يكون الكل من ولد آدم لصلبه أنبياء؛ لأن أباهم نبي وأولاده أنبياء أيضًا؛ لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء، وهكذا أبدًا حتى يبلغ الأمر إلينا»[1].

٤. تآمرهم عليه.

لما رأى إخوة يوسف حب أبيه له وميله إليه وإلى أخيه-شقيقه- دب الحسد في قلوبهم، وزين لهم الشيطان الانتقام منه، فتآمروا عليه، وعزموا على التفريق بينه وبين أبيه، ونفذوا ما عزموا عليه، وأبعدوه عن والده، وجروا عليه وعلى والده محن عظيمة امتدت لسنوات طوال.

قال تعالى حاكيًا ما حصل منهم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:٧-٨].

أي: جماعة، يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٨] أي: لفي خطأ بين؛ بتقديمه حبهما علينا[2].

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ٤/ ٨.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٢، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.

وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين؛ إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، وإنما مرادهم أن أباهم -في زعمهم- في ذهابٍ عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرةٍ مع استوائهم في الانتساب إليه؛ ولأن العشرة أكثر نفعًا له [(١)].

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرضٍ لا يرجع منها؛ ليخلو لهم وجه أبيهم أي: لتتمحض محبته لهم.

قالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف:٩].

أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم، فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلًا لفعله[(٢)].

فلما تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف:١٠].

أي: يقول أحد إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ فإن قتله أعظم إثمًا وأشنع، والمقصود يحصل بإبعاده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى إبعاده بأن تلقوه وأشار عليهم بأن يلقوه في ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وهو أسفله، والغيابة: كل ما غاب عنك، أو غيب شيئًا عنك، والجب: الركية التي لم تطو، فإذا طويت فهي بئر، وسميت جبًا؛ لأنها قطعت في الأرض قطعًا[(٣)] ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا بهذا، ولا حاجة إلى قتله ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون [(٤)].

قال السعدي: «وهذا القائل أحسنهم رأيًا في يوسف، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل [(٥)]».

قال ابن كثير: «ولم يكن لهم سبيلٌ إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لا بد من إمضائه وإتمامه: من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة أخيه فيه [(٦)]».

وقد صدق رحمه الله.

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار عليهم أخوهم، جاؤوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يرسله معهم، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليمٌ [(٧)]،

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٣١، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٣.
(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٢، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.
(٣) انظر زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤١٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٣٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١١.
(٧) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٣.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١﴾ [يوسف:١١].

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾ [يوسف:١٢].

أي: يتنزه في البرية ويستأنس.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف:١٢]

أي: سنراعيه ونحفظه من أذى يريده.

فأجابهم والدهم ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [يوسف:١٣].

يقول لهم: إن مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي؛ لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله و مانع ثان وهو أني ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾ أي: في حال غفلتكم عنه وانشغالكم في لعبكم، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب[(١)].

«وإنما ذكر يعقوب عليه السلام أن ذهابهم به يحزنه؛ ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به؛ لأن شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه، فأبوا إلا المراجعة[(٢)].

قالوا: ﴿لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾ [يوسف:١٤].

يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا وغلبنا عليه، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعةٌ إنا إذا لعاجزون هالكون، لا خير فينا ولا نفع يرجى منا[(٣)].

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم، فذهبوا به وبلغوا المكان الذي فيه الجب ونفذوا مهمتهم وألقوه في البئر، ولكن الله تعالى لطف به حيث حفظه من الضرر فلم يصطدم بجدرانها فيهلك أو يغرق في مائها فيموت، بل إن الله أمنه من الخوف حيث أوحى إليه في تلك الحال الحرجة تطييبًا لقلبه، وتثبيتًا له وبشره«أنه لابد لك من فرجٍ ومخرجٍ من هذه الشدة التي أنت فيها، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك،ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حالٍ أنت فيها عزيزٌ، وهم محتاجون إليك خائفون منك»[(٤)].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ [يوسف:١٥].

أي: في قعره.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ وفي المراد بالوحي

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٣٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٢.
(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٤، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.

قولان[1]:

أحدهما: أنه إلهام.

والثاني: أنه وحي حقيقة.

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: لتخبرن إخوتك بفعلهم هذا الذي فعلوه بك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وفي المراد بهذه الآية قولان:

أحدهما: وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليك.

والثاني: وهم لا يشعرون أنك يوسف وقت إخبارك لهم،، وذلك إخبارٌ بما وقع بعد سنين مما حكي في هذه السورة[2].

وهذا هو الراجح؛ لأن الله جل وعلا صرح في هذه السورة الكريمة بأنه أنجز ذلك الوعد في قوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ [يوسف:٨٩-٩٠].

وصرح بعدم شعورهم بأنه يوسف في قوله: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف:٥٨][3].

فلما ألقوه في البئر ورجعوا عنه، أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاءً وهم يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف:١٦].

أي: على أخيهم؛ ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالمٍ وهو باك! وذكر بكاء إخوة يوسف وقد ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾، أي: في ظلمة الليل؛ ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم[4].

قالوا: متعذرين بعذر كاذب ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف:١٧].

إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا.

﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ أي: في حال غيبتنا عنه في استباقنا، وهذا الذي كان قد خاف منه عليه، لكنهم أخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي بمصدقٍ لنا.

﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا ولا تهمتنا في هذه القضية؛ لشدة محبتك في يوسف[5].

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤١٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٧٥، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤١٩، التحرير والتنوير ١٢/ ٢٣٤.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٤.
(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٥.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٢.

[يوسف:١٨] أي: مكذوبٍ مفتعلٍ؛ ولهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب.

بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ [يوسف:١٨].

أي: زينت لكم أنفسكم أمرًا قبيحا في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دله على ما قال.

﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال [(١)].

قال ابن عاشور: وإنما فوض يعقوب عليه السلام الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف عليه السلام؛ لأنه علم تعذر ذلك عليه لكبر سنه؛ ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك. وقد صاروا هم الساعين في البعد بينه وبين يوسف عليه السلام، فأيس من استطاعة الكشف عن يوسف بدونهم، ألا ترى أنه لما وجد منهم فرصةً قال لهم: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧] [(٢)].

لما ألقي يوسف عليه السلام في البئر وترك لمصيره، كان من لطف الله به أن جاء بالسيارة إليه كما قال: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ [يوسف:١٩].

أي: مسافرون وهم قافلة تريد مصر.

﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ والوارد الذي يرد الماء يستقي للقوم.

﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥ﴾ أرسل دلوه في البئر ليملأه، والدلو معروف: وهو ما يستخرج به الماء من البئر، فتعلق فيه يوسف فأخرجه واستبشر به.

وقال: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ أي: يا بشراي.

﴿هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗ﴾ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره [(٣)].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: هو عالمٌ بما يفعله إخوته ومشتروه، وهو قادرٌ على تغيير ذلك ودفعه ومع هذا لا يغيره تعالى؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر [(٤)].

وقال أيضًا: وفي هذا تعريضٌ لرسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وإعلامه له بأنني عالمٌ بأذى قومك، وأنا قادرٌ على

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٣، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٤٠.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٥٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٤.

(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٥.

الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته[(1)].

﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعه السيارة.

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: قليلٍ ناقص.

فسره بقوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف:٢٠] أي: ممن يرغب عما في يده فيبيعه بأقل ثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاونٌ به لا يبالي بما باعه؛ ولأنهم خافوا أن يظهر له مستحقٌّ فينزعه من يدهم؛ ولذلك باعوه بأوكس الأثمان[(2)].

هذا هو القول الأول في هذه الآية وأن الذين شروه -بمعنى باعوه- بمصر هم السيارة وأن إخوته ألقوه وانصرفوا، وهو اختيار أبي حيان والشوكاني وابن عاشور وغيرهم[(3)].

وهو الظاهر؛ لدلالة ظاهر السياق عليه؛ حيث إن الله ذكر ذلك بعد ذكره لرجوع إخوة يوسف إلى أبيهم، ثم ذكر بعدهم مجيئ السيارة، وبعده قال: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ ثم بين من اشتراه منهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف:٢١].

ولم يشر القرآن إلى رجوع إخوة يوسف مرة أخرى إلى البئر.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ وفي ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على إخوة يوسف، وأنهم لما استشعروا بأخذ السيارة له لحقوهم، وقالوا هذا غلامنا أبق منا ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني: أن إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: باعه إخوته للسيارة بثمنٍ دونٍ قليلٍ، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيءٍ لأجابوا؛ لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه. واختار هذا القول ابن كثير والطبري والسعدي وغيرهم[(4)].

وقد خاض بعض المفسرين في عدد هذه الدراهم، لكنه لا طائل من وراء ذلك، قال ابن جرير الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٤.
(٢) انر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٥٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٣٤.
(٣) انظر البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٥٣، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٦، التحرير والتنوير ١٢/ ٢٤٤.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٤، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٦، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٥.

كتاب ولا خبر من الرسول صلى الله عليه وسلم وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضر فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرضٌ، وما عداه فموضوعٌ عنا تكلف علمه[١].

٥. **اتهامهم له بالسرقة.**

ومما نال يوسف أيضًا من إخوته اتهامهم له بالسرقة زورًا وبهتانًا، حين قالوا لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع أخيهم: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريبا منه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٧٧]. يعنون: يوسف عليه السلام، وهذا مجرد اتهام، قال الحسن: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه[٢].

وقال الشوكاني: «فما هذه الكذبة بأول كذباتهم»[٣].

وفي هذا من الغض عليهما ما فيه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٧٧].

أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه.

و﴿قَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه.

وفي معناها قولان:

أحدهما: أنتم شرٌّ صنيعًا من يوسف لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم.

والثاني: شرٌّ منزلة عند الله[٤].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها[٥].

٦. عفوه عنهم.

ضرب يوسف عليه السلام أروع الأمثلة في العفو والصفح حتى صار مثالًا يحتذى به وذلك حين عفا عن إخوته وسامحهم، بالرغم من ما قاموا به تجاهه، وقد كان في موقف قوة وكان قادرًا على الانتقام لكنه لم يفعل.

لما صار يوسف عليه السلام في الملك وعلى خزائن الأرض، وجاء إخوته يطلبون الميرة وعرفهم بنفسه، قالوا مندهشين متعجبين - وقد ترددوا إليه مرارًا عديدةً وهم لا يعرفون أنه هو- ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف:٩٠].

يعني: أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم.

وقوله: ﴿وَهَٰذَا أَخِي﴾ تأكيدٌ لما قال،

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٤٦٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٦٠.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٤.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٦٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢.

وتنبيهٌ على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد، وعملوا في أمرهما من الاحتيال.

ولهذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بإحسانه إلينا وجمعه بيننا بعد التفرقة وإيوائه لنا، وذلك بسبب الصبر والتقوى.

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: يتقِ فعل ما حرم الله ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا[1].

لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، فلهذا شعروا بالحرج واللوم وقالوا معترفين له بالفضل: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)﴾ [يوسف:٩١].

يقسمون له بأن الله فضلك علينا وأعطاك ما لم يعطنا، ونحن كنا خاطئين في إساءتنا إليك وما قمنا به تجاهك، فعفا عنهم وسامحهم ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢].

يقول: لا تأنيب عليكم اليوم ولا عتب عليكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا، ثم زادهم على ذلك بأن دعا لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢][2].

وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين[3].

ولم يكتف بذلك بل قام بإيوائهم هم وجميع أفراد الأسرة حيث أمرهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين، فلما دخلوا عليه وحيوه بالسجود خاطبهم بأسلوب تجنب فيه أي عبارة تجرح مشاعرهم؛ مما يدل على صدر كبير، وأن عفوه لم يكن باللسان فقط بل كان باللسان والجنان والفعال؛ حيث قال ﴿يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ [يوسف:١٠٠].

يقول السعدي رحمه الله: وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي، فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: «أحسن بكم» بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ جعل الإحسان عائدا إليه، ثم قال: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فلم يقل: «نزغ الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين[4].

---

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٨، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.
(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٤٩.

يوسف عليه السلام وامرأة العزيز

أولًا: قصة مجيئه إلى مصر:

لما تآمر إخوة يوسف عليه وألقوه في البئر جاءت سيارة- أي: مسافرون- فأخرجوه منها وأخذوه معهم، فلما وصلوا بلاد مصر باعوه بثمن زهيد، كما قال تعالى ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾ [يوسف:٢٠].

وكان من لطف الله تعالى به أنه لم يقع في يد رجل من عامة الناس يهينه ويتعبه بالخدمة، بل هيأ الله له أن يشتريه عزيز مصر وأن ينشأ في قصره عزيزًا مكرمًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١].

أي: أحسني إليه، وأكرمي موضع إقامته[١].

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: يكفينا بعض المهمات إذا بلغ.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتبناه؛ ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد[٢].

«وإنما قال ذلك لحسن تفرسه في ملامح يوسف عليه السلام المؤذنة بالكمال[٣]».

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف:٢١].

يقول عز وجل: وكما أنقذنا يوسف من أيدي إخوته وقد هموا بقتله وأخرجناه من الجب بعد أن ألقي فيه كذلك مكنا له في الأرض، أي: عطفنا عليه قلب الملك الذي اشتراه حتى تمكن من الأمر والنهي في البلد وصار على خزائنها[٤].

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ تأويل الرؤيا وغيره.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ يفعل ما يشاء لا يغلبه شيءٌ ولا يرد عليه حكمه رادٌّ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أي: لا يعلمون أن الأمر كذلك، إذ لو علموا لفوضوا أمرهم إليه وتوكلوا عليه ولم يحاولوا معصيته بالخروج عن طاعته[٥].

وبقي يوسف عليه السلام هناك حتى بلغ أشده كما قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ [يوسف:٢٢] أي: كمال قوته البدنية والعقلية[٦].

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ قيل: النبوة، أو الحكم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٨، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٠١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٦٠، جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٤٦.
(٤) انظر جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٠.
(٥) انظر معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٨٣، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٨، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٠٣.
(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٠١.

بين الناس، أو الإصابة في القول.

﴿وَعِلْمًا﴾ قيل: الفقه. وقيل: علم الرؤيا[1] وقد آتاه الله ذلك كله من النبوة والحكمة والعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكما جزيت يوسف فآتيته بطاعته إياي الحكم والعلم، ومكنته في الأرض، واستنقذته من أيدي إخوته الذين أرادوا قتله، كذلك نجزي من أحسن في عمله، فأطاعني في أمري، وانتهى عما نهيته عنه من معاصيِ[2].

ثانيًا: قصة المراودة:

من أعظم الفتن والمحن التي مر بها يوسف عليه السلام فتنة المرأة، وهي من الفتن التي لا يقوى على دفعها إلا الأقوياء من أهل الإيمان والمروءات.

قال السعدي: «هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرا؛ لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعا أو كارها»[3].

وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرمًا في بيت العزيز، حتى بلغ أشده، وقدكان في غاية الجمال ففتنت به امرأة العزيز فتنةً شديدة وهمت بفعل الفاحشة معه وروادته عن نفسه وأخذت بكل الأسباب ولكن الله عصمه.

يقول تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف:٢٣].

أي: حاولته على نفسه، ودعته إليها «وأصل المراودة الإرادة والطلب برفقٍ ولينٍ»[4]، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلم وأقبل وتعال، فامتنع من ذلك أشد الامتناع.

و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله وأستجير به من فعل هذا القبيح الذي دعوتني إليه؛ لأنه مما يسخط الله ويبعد منه؛ ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ يعني زوجها صاحب المنزل بمعنى سيدي، وكانوا يطلقون «الرب» على السيد والكبير، أي: إن بعلك أحسن إلي وأكرم مقامي عنده وائتمنني، فلا يليق بي أن أقابله بالفاحشة في أهله، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٢٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٦٢.

[يوسف:٢٣][1].

«أشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلمٌ؛ لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصيةٍ مما اتفقت الأديان على أنها كبيرةٌ، وظلم سيده الذي آمنه على بيته وآمنها على نفسها»[2].

فمع أنه غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد ولا إحساس بشر، ومع أنها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ وصار المحل خاليا، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، وقد دعته هي إلى نفسها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عزب، لكنه امتنع وصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه[3].

وللحافظ ابن كثير كلام متين في التعليق على هذه الآية حيث يقول[4]: «يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير، وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شابٌ بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبيٌ من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: (سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم: (ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله)[5].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ [يوسف:٢٤] أي: عزمت عليه في أن يواقعها يوسف.

﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ أي: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكن لأنه رأى برهان ربه فلم يقع منه هم أصلًا، أو أن المراد بهم يوسف بها خاطرٌ قلبيٌّ صرفه عنه وازع التقوى[6].

والبرهان الذي رآه يوسف هو ما آتاه الله

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٦٣، ١٦٥، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٥٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.
(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٦٠، كتاب صلاة الجماعة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، ومسلم في صحيحه، رقم ١٠٣١، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.
(٦) انظر أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٧.

تعالى من العلم الدال على تحريم ما حرمه الله[1].

وقد قيلت في ذلك البرهان أقوال كثيرة «ولا حجة قاطعةٌ على تعيين شيءٍ من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى»[2].

والرؤية هنا علميةٌ؛ لأن البرهان من المعاني التي لا ترى بالبصر[3].

ولذلك أخبر الله تعالى عن عصمته له عن الفاحشة وأثنى عليه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

أي: كما أريناه برهانًا صرفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أي: الذي اصطفاهم الله واجتباهم[4].

وقد قرئت (المخلصين) بقراءتين متواترتين: فقرئت بكسر اللام، وتأويلها: الذين أخلصوا طاعة الله.

وقرئت بفتح اللام، وتأويلها: الذين أخلصهم الله لرسالته، وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين، لأنه كان مخلصًا في طاعة الله تعالى، مستخلصًا لرسالة الله تعالى[5].

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص من الفتنة، فبادرت إليه ولحقته في أثناء ذلك،، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه من دبر، يعني: شقته من خلف لا من قدام؛ لأن يوسف كان هو الهارب وكانت هي الطالبة.

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ [يوسف:٢٥] أي: من ورائه.

فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ أي: وجدا زوجها لدى الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلةً وقاذفةً يوسف بدائها: ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ أي: فاحشةً،﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: يحبس، أو يعذاب عذابًا مؤلما بالضرب ونحوه[6].

فدافع يوسف عليه السلام عن نفسه ونفى التهمة عنه وقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾، فمن الله في تلك اللحظة تبرئة لنبيه

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٥٧، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٦، جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٥٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٨.

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٠.

(٦) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٨، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.

بشاهد من أهل بيتها يشهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق.

قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ أي: من قرابتها، أو من من خاصة الملك، وسمي الحكم بينهما شهادةً لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل[(١)].

وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغيرٌ أو كبيرٌ، على قولين لعلماء السلف[(٢)]:

القول الأول: أنه كان رجلًا لا صبيا في المهد: قال أبو جعفرٍ النحاس: «والأشبه بالمعنى- والله أعلم- أن يكون رجلًا عاقلًا حكيمًا شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة، ولو كان طفلًا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغني عن أن يأتي بدليلٍ من العادة، لأن كلام الطفل آيةٌ معجزةٌ، فكادت أوضح من الاستدلال بالعادة، وليس هذا بمخالفٍ للحديث (تكلم أربعةٌ وهم صغارٌ) منهم صاحب يوسف، يكون المعنى: صغيرًا ليس بشيخٍ»[(٣)].

القول الثاني: أنه كان صبيًّا في المهد؛ لحديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(تكلم أربعةٌ وهم صغارٌ: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريجٍ، وعيسى ابن مريم)**[(٤)].

جاء الشاهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المراود لها، وأنها أرادت أن تدفعه عنها فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب، وكذلك كان.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف:٢٨].

عرف زوجها بذلك صدق يوسف وبراءته، وأنها هي الكاذبة فيما قذفته ورمته به.

فلما تحقق من ذلك ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: إن هذا البهت الذي رميت به هذا الشاب هو من جملة كيدكن، والكيد: المكر والحيلة[(٥)].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٣.

(٢) انظر زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٣٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢١٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٤.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٨٢١، والطبراني في المعجم الكبير، رقم ١٢٢٧٩، والطبري في تفسيره، ١٦/ ٥٤ وغيرهم من طريق عطاء بن السائب.
قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٤: إسنادٌ لا بأس به.
وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٣/ ٢٥٣.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾؛ لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن. وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام[1].

ثم إن سيدها لما تحقق الأمر قال ليوسف عليه السلام آمرًا له بكتمان ما وقع: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف:٢٩].

أي: اترك الكلام في هذا الأمر واضرب عنه صفحًا، فلا تذكره لأحد؛ لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن.

ثم قال لامرأته ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [يوسف:٢٩]. أي: من هذا الذي وقع منك، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ «ولم يقل من الخاطئات تغليبًا للمذكر، والمعنى: من القوم الخاطئين، مثل: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل:٤٣]. ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]»[2].

فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة، وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك كحال كثير من المشركين[3].

انتشر الخبر وشاع في المدينة، وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها على ما أقدمت عليه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف:٣٠].

أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها، هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغًا عظيمًا!!

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، أو هو غلافه فدخل تحته حتى غلب على قلبها، وهذا أعظم ما يكون من الحب.

ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: قلن: إنا لنرى امرأة العزيز في مراودتها فتاها عن نفسه وغلبة حبه عليها لفي خطأ من الفعل وجور عن قصد السبيل[4].

وقيل: كان هذا القول منهن مكرًا ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز، ولهذا سماه مكرًا، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ

٢/ ٦١٩، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢١.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٥، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٥.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٩.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٣، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.

﴿إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:٣١].

أي: لما سمعت بتشنيعهن عليها أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن، ولتوقعهن فيما وقعت فيه.

فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: أعدت لهن مجلسًا للطعام، وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة طعام يحتاج أن يقطع بالسكاكين كالأترج ونحوه، ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: وأمرته بالخروج عليهن في تلك الحال، فخرج وهو في غاية الجمال وقد أعطي شطر الحسن[1].

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي: فلما رأينه أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرون بالجراح.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[2].

فلما حصل من النسوة ما حصل من الإعجاب بيوسف والانبهار به تقوى موقف امراة العزيز فأقرت بمراودته أمامهن، وازدادت إصرارًا على يوسف عليه السلام وهددته بالسجن والصغار إن لم يقبل، وتمالأ معها النسوة عليه وأشرن عليه بطاعتها ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢]. أي: امتنع، ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ تقول: لئن لم يطاوعني على ما أدعوه إليه ليحبسن وليكونًا من أهل الصغار والذلة[3].

فعند ذلك أبى أشد الإباء، واستعاذ من شرهن وكيدهن، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣]. أي قال: يا رب، الحبس في السجن أحب إلي مما يدعونني إليه من معصيتك ويراودنني عليه من الفاحشة[4].

«وهذا يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد»[5].

قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ أي: تعصمني من المعصية ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي:

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/ ٦٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٤.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٤، جامع البيان، الطبري ١٦/ ٨٦.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٨٦.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.

أمل إليهن، ﴿وَأَكُن﴾ إن صبوت إليهن ﴿مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ من الذين جهلوا حقك وخالفوا أمرك ونهيك[(١)].

فاستجاب له دعاءه ولطف به وعصمه عن الوقوع في الزنى، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ [يوسف:٣٤].

أي: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء يوسف حين دعاه بصرف كيد النسوة عنه، ودعاء كل داع من خلقه ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمطلبه وحاجته، وما يصلحه، وبحاجة جميع خلقه وما يصلحهم[(٢)].

ثالثًا: براءته ونفي التهمة عنه:

لما تمالأ النسوة على يوسف عليه السلام وأمرنه بطاعة امرأة العزيز لجأ إلى الله في دفع السوء عنه وفضل السجن على المعصية في موقف يدل على عفة عظيمة ونفس كبيرة ومعدن أصيل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف:٣٣].

قال ابن كثير: «وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفًا من الله ورجاء ثوابه»[(٣)].

ولما اشتهر الحال وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح قرر العزيز ومن معه سجنه عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ [يوسف:٣٥]. أي: ظهر لهم من الرأي ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وهي الأدلة الدالة على براءته ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى مدةٍ؛ وذلك لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن؛ وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلمًا وعدوانًا، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم[(٤)].

وبعد مدة قضاها في السجن يقدر الله تعالى رؤيا منامية يراها الملك ويعجز الجميع عن تعبيرها إلا يوسف عليه السلام، فلما عبرها أعجب به الملك وأمر بإخراجه من السجن، فامتنع يوسف عليه السلام عن الخروج حتى تتبين براءته التامة مما نسب إليه، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ [يوسف:٥٠]. أي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٨٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٠.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٦.

رسول الملك ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني الملك، ﴿فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: اسأله ما شأنهن وقصتهن، ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن الله تعالى ذكره ذو علم بكيدهن، لا يخفى عليه ذلك كله. وقيل: إن معنى ذلك: إن سيدي العزيز زوج المرأة التي راودتني عن نفسي ذو علم ببراءتي مما اقترفتني به من السوء[(١)].

فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن وامرأة العزيز فقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ [يوسف:٥١]. أي: ما شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ يعني: يوم الضيافة، فهل رأيتن منه ما يريب؟ فلما سئلن عن ذلك برأنه، و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي: لا قليل ولا كثير، يقلن: حاش لله أن يكون يوسف متهما، والله ما علمنا عليه من سوءٍ، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وتبين ووضح، والحق أحق أن يتبع ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المراودة إليها[(٢)].

ثم قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف:٥٢].

تقول: إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، وإنما كان مراودةً لم يقع معها فعل فاحشةٍ[(٣)].

قيل: ويحتمل أن مرادها بذلك يوسف عليه السلام، والمعنى: ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته بالكذب عليه[(٤)].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ فإن كل خائن لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف:٥٣].

تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أمارةٌ بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: غفور لمن تاب وأناب، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول توبته وتوفيقه للأعمال الصالحة[(٥)].

هذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر[(٦)].

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٣٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٠.
(٢) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٣٨، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤١.
(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤.
(٤) زاد المسير ٢/ ٤٤٨.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٦.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٠.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام[(١)].

أما القول بأن هذا من كلام يوسف عليه السلام فإن السياق يأباه لعدة أمور:

أولها: أن الكلام لا يزال في سياق كلام امرأة العزيز.

وثانيها: أن يوسف عليه السلام لا يزال في السجن لم يخرج منه بعد كما يفيده السياق إذ قال بعد هذا ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٤].

وثالثها: أن المقام مقام براءة له وقد ظهرت براءته وحصل مطلوبه فليس مناسبا أن يقول ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ [يوسف:٥٣]، ولكل مقام مقال.

ويمكن إجمال بطلان ما يخالف براءته في ثلاثة محاور:

١. بطلان الإسرائيليات الواردة في ذلك.

لقد جاءت عدد من الروايات تصف يوسف عليه السلام بأنه عزم على فعل الفاحشة حتى جلس من المرأة مجلس الرجل من المرأة لولا أمور رآها صرفته عن ذلك، وهذه من الإسرائيليات لا يلتفت إليها؛ لأنها ليس فيها خبر واحد صحيح عن نبينا المعصوم صلى الله عليه وسلم، ولأنها لا تليق بمقام الأنبياء، ولأنه لو وصل إلى هذه الدرجه لما أثنى الله عليه كل هذا الثناء.

قال الحافظ ابن كثير: وأكثر أقوال المفسرين هاهنا متلقًّى من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنا، والذي يجب أن يعتقد: أن الله تعالى عصمه وبرأه، ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤][(٢)].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: والآثار الواردة في ذلك على قسمين: قسمٌ لم يثبت نقله عمن نقل عنه بسندٍ صحيحٍ، وهذا لا إشكال في سقوطه. وقسمٌ ثبت عن بعض من ذكر ولكنه ملتقى عن الإسرائيليات،ولم يرفع منه قليلٌ ولا كثيرٌ إليه صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز التجرؤ على القول في نبي الله يوسف اعتمادًا على مثل هذه الروايات[(٣)].

٢. دلائل وشواهد براءته.

منها:

- أن الله تعالى قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوءٌ ولا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٦.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢١.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢١٤، بإيجاز.

فحشاء[1].

❁ ما قاله الشنقيطي في أضواء البيان[2]:

«إن القرآن العظيم بين براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي حيث بين شهادة كل من له تعلقٌ بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به.أما الذين لهم تعلقٌ بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود. أما جزم يوسف بأنه بريءٌ من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ [يوسف:٢٦]. وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف:٣٣]. وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١]. وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف:٢٨-٢٩]. وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف:٢٦]. وأما شهادة الله جل وعلا ببراءته ففي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص:٨٢-٨٣]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ولا شك أن يوسف من المخلصين كما صرح تعالى به في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. فظهرت دلالة القرآن من جهاتٍ متعددةٍ على براءته مما لا ينبغي».

٣. معنى الهم الوارد في الآية.

الآية هي قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف:٢٤].

ولأهل العلم في المعنى المراد بالهم قولان معتبران:

الأول: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ أصلًا، بل هو منفيٌّ عنه لوجود البرهان. وهو اختيار أبي حيان[3].

قال الشنقيطي: هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/٢٩٦.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/٢٠٧.

(٣) انظر البحر المحيط، أبو حيان ٦/٢٥٨.

﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].

أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه.

وكقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٤].

أي: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم، وعلى هذا القول: فمعنى الآية: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠].

أي: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به »[١].

وهذا القول هو الذي يترجح عندي؛ لأن ظاهر السياق يؤيده، والثناء الوارد من الله في حق يوسف يؤكده.

القول الثاني:أن المراد بهمه بهاخطرات حديث النفس التي لا يؤاخذ العبد عليها، بل يؤجر العبد على تركها؛ لأنه تركها خوفا من الله تعالى،كما في الحديث: (ومن هم بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً)[٢].

وكما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

فكان يوسف عليه السلام ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى [٣].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٤٩١، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، ومسلم في صحيحه، رقم ١٣١، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما.

(٣) انظر:مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٧.

يوسف عليه السلام في السجن

أولًا: سبب دخوله السجن:

لم يقترف يوسف عليه السلام جرما يستحق أن يسجن بسببه بل سجن ظلما وعدوانًا؛ وذلك أن امرأة العزيز لما راودته عن نفسه فأبى هددته بالسجن إن لم يوافق عل طلبها ويرضى باقتراف الفاحشة، فاختار السجن على فعل الفاحشة؛ فقرروا سجنه عليه السلام، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف:٣٥].

أي: إلى مدةٍ؛ كتمانًا للقصة ألا تشيع في العامة، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلمًا وعدوانًا، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم[١].

وفي هذا دلالة على أنه ليس كل من سجن فهو متهم، بل قد يسجن البريء ظلمًا وعدوانًا كما حصل ليوسف عليه السلام.

ثانيًا: حاله في السجن:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف:٣٥]. أي: إلى مدةٍ.

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٨٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٦٨.

وقال ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢].

والبضع: هو ما بين الثلاث إلى التسع[٢]، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين[٣]، والله أعلم.

المهم أن يوسف عليه السلام مكث في السجن عدة سنوات، والسجن ليوم واحد صعب فكيف بسنين!

ومع أنه سجن ظلمًا، ومكث في السجن عدة سنين لكنه ظلَّ صابرًا ثابتًا على مبدئه حتى عندما طلب منه الخروج من السجن من قبل الملك امتنع عن الخروج وتأنى حتى ثبتت براءته، وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وصبره، كما في الحديث: **(لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي)**[٤].

وعرف يوسف عليه السلام بين السجناء بحسن التعامل حتى صاروا يقولون: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

ويخاطبونه بقولهم: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦].

قال الحافظ ابن كثير: «كان يوسف،

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.
(٤) سبق تخريجه.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٥.

عليه السلام، قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم»[(١)].

ولما أوصى السجين أن يذكره عند الملك فنسي، ثم عاد ليسأله عن تعبير رؤيا الملك بعد بضع سنين عبرها له يوسف عليه السلام، من غير تعنيفٍ له في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراطٍ للخروج قبل ذلك[(٢)].

وعرف يوسف عليه السلام في السجن، بتعبير الرؤى وجرى له في ذلك موقفان سجلهما القرآن:

الأول: تعبيره لرؤيا الفتيين الذين كانا معه في السجن.

والثاني: تعبيره لرؤيا الملك، وقد مضى تفصيل ما يتعلق بهاتين الحادثين في مبحث يوسف وتعبير الرؤى.

وقد مارس يوسف عليه السلام الدعوة إلى الله وهو داخل السجن وذلك أنه لما دخل السجن، دخل معه السجن فتيان «ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظنَّ الحسن وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

وأتياه ليعبر لهما رؤياهما؛ رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولًا أنَّ الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه»[(٣)].

فقال: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٣٧]. يقول لهما: إنَّ هذا من تعليم الله إياي، لأني مؤمنٌ به موحدٌ له.

﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يقول: إني برئت من ملة من لا يصدق بالله، ويقر بوحدانيته.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ يقول: وهم مع تركهم الإيمان بوحدانية الله، لا يقرون بالمعاد والبعث، ولا بثواب ولا عقاب.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين،وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢١.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٢٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.

إمامًا يقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد[1].

﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٣٨]. أي: بأن هدانا لهذا، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بأن أرسلنا إليهم دعاةً إلى توحيده وطاعته، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨][2].

ثم صرح لهما بالدعوة، فدعاهما إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عزوجل، وصغر أمر الاوثان وحقرها، وضعف أمرها فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف:٣٩]. أي: يا ساكني السجن، «وجعلهما صاحبيه لطول مقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار»[3].

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ الذي له صفات الكمال، ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها.

ولهذا قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف:٤٠].

بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهةً، إنما هو جهل منهم، وتسميةٌ من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستندٌ من عند الله.

ولهذا قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجةٍ ولا برهانٍ، بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها؛لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقد أمر عباده قاطبةً ألا يعبدوا إلا إياه، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: وحده لا شريك له، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم، يقول: هذا الذي أدعوكم إليه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٦، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٠١.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢. تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٢، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٠٤.

من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول: ولكن أهل الشرك بالله يجهلون ذلك، فلا يعلمون حقيقته؛ لذلك فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره؛ وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها؛ ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك [1].

وكانت دعوته لهما في هذا الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمةٌ له، منبعثةٌ على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه. ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه، عبر لهما ما رأيا [2].

قال السعدي: «فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما بذلك الحجة [3]».

ثالثًا: سبب خروجه من السجن:

لما ظن يوسف عليه السلام، نجاة أحد الفتيين الذين كانا معه في السجن -وهو الساقي- أوصاه بأن يذكر أمره للملك.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢].

يعني: اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرمٍ عند ربك -أي سيدك: وهو الملك-، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبي الله من السجن.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، أو المعنى: أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لربه، أي لسيده، وفيه حذفٌ، أي أنساه الشيطان ذكره لربه، ﴿فَلَبِثَ﴾ يوسف ﴿فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢] [4].

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ عائدٌ

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٧، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢، ٦٢٣، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٠٥.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١١٥.

على الناجي، وأما القول بأن الضمير عائدٌ على يوسف عليه السلام فقول ضعيف [1]؛ إذ لا سلطان للشيطان على أنبياء الله وعباده المخلصين كما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص:٨٣].

ويوسف عليه السلام من المخلصين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [النحل:٩٩].

وأما ما جاء على لسان بعض الأنبياء من نسبة ما أصابهم إلى الشيطان كقول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١].

فإنما هو من باب الأدب مع الله تعالى في عدم نسبة الشر إليه، ثم إن ما ذكره أيوب عليه السلام حتى وإن حمل على ظاهره فهو حديث عن التسبب في الأذى البدني وهو يختلف عن التسلط على القلب واللسان [2]. والله أعلم.

لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف عليه السلام من السجن، قدر سببًا لإخراجه وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك، حيث «أرى الله الملك تلك الرؤيا العجيبة، التي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به» [3]، حيث قال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف:٤٣].

ثم سأل قومه عنها فعجزوا جميعًا عن تعبيرها، فعند ذلك أرسل إلى يوسف عليه السلام وهو في السجن فعبرها كأحسن ما يكون التعبير.

هكذا عجزوا عن تعبيرها ليقع تعبيرها من يوسف عليه السلام بعد عجزهم عنها فتكون له المكانة بينهم.

قال الحافظ بن كثير: «هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام، من السجن معززًا مكرمًا، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءه وقصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف:٤٤].

أي: أخلاطٌ اقتضت رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف:٤٤].

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

أي: ولو كانت رؤيا صحيحةً من أخلاطٍ، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها»[1].

قال السعدي: وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عليه السلام؛ فإنه لو عبرها ابتداء -قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها- لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًّا لها غاية الاهتمام، فعبرها يوسف عليه السلام وقعت عندهم موقعًا عظيمًا، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كلِّ شيء، فحصل بذلك زيادة فضله.

وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد صلى الله عليه وسلم في القيامة؛ أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدًا صلى الله عليه وسلم فيقول: «أنا لها أنا لها» فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت ألطافه، ودقت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه[2].

لما رجعوا إلى الملك بتعبير رؤياه بما أعجبه عرف فضل يوسف عليه السلام، وكمال علمه، وتمام عقله، فأمر بإحضاره إليه؛ ليكون من جملة خاصته ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٠].

فلمَّا جاءه الرسول بذلك، امتنع من الخروج وأحبَّ أن لا يخرج حتى يتبين لكلِّ أحدٍ أنه حبس ظلمًا وعدوانًا، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه زورًا وبهتانًا[3].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني: الملك، ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، فجمع الملك النسوة وسألهن فاعترفن جميعًا ببراءته حتى امرأة العزيز.

فلما ظهرت للملك وللناس براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه، ازدادت مكانته في عين الملك فأرسل إليه وأخرجه من السجن، وعزم أن يجعله من خاصته ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف:٥٤].

أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي، فأتوه به مكرمًا محترمًا، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: فلما كلم يوسف الملك أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده، ورأى من حسن منطقه ما صدق به الخبر؛ إذ المرء مخبوءٌ تحت لسانه[4]، أو

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.
(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٥٥، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٢، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠١.

فلما كلم الملك يوسف عليه السلام وعرف براءته وعظم أمانته، قال له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ﴾ [يوسف:٥٤]. أي: ذو مكانةٍ ومنزلةٍ ﴿أَمِينٌ﴾ أي: مؤتمنٌ على كلِّ شيءٍ[1].

هكذا خرج يوسف عليه السلام من السجن عزيزًا مكرمًا مبرءًا بل ممكنًا، وهكذا عاقبة الصبر على البلاء.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٤٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٦، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٩١.

يوسف عليه السلام في الملك

أولًا: توليه الملك:

لما عبر نبي الله يوسف عليه السلام رؤيا الملك عظمت مكانته عند الملك، ولما ظهرت براءة عرضه، ونزاهة ساحته مما نسبوه إليه، ازدادت مكانته عليه السلام في عين الملك أكثر، ولذلك قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ [يوسف:٥٤].

أي: أجعله من خاصتي، ومن أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ وسمع مقاله وتبين حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: ذو مكانةٍ وأمانةٍ[2].

فَهِمَ يوسف عليه السلام من الملك أنه عزم على تصريفه والاستعانة بنظره في الملك، فبادر الملكَ فـ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [يوسف:٥٥].

أي: ولني عليها، وخزائن لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ أي: حفيظ لما استودعتني، عليم بما وليتني[3].

وفي هذا دليلٌ على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة[4].

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٥٦، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٤٩.
(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٥.

فقد «طلب يوسف عليه السلام ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم، ودعوة أهل مصر إلى الإيمان»[(١)].

أما ما ورد من النهي عن طلب الولاية فيستثنى منه من حسن مقصده، وعلم من نفسه الأمانة والكفاءة، وعلم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف:٥٦].

أي: بمثل هذه الأسباب والتدابير مكنا ليوسف في أرض مصر يتبوأ منها أي ينزل حيث يشاء يتقلب فيها أخذًا وعطاء وإنشاء وتعميرًا لأنه أصبح وزيرًا مطلق التصرف.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: من نشاء رحمته من عبادنا، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا وعد من الله تعالى لأهل الإحسان بتوفيتهم أجورهم، ويوسف عليه السلام ممن شاء الله رحمتهم كما هو من أهل الإحسان الذين يوفيهم الله تعالى أجورهم في الدنيا والآخرة، وأخبر تعالى أن أجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون، ترغيبا في الإيمان والتقوى إذ بهما تنال ولاية الله تعالى عز وجل؛ إذ أولياؤه هم المؤمنون المتقون، ولذلك قال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾ [يوسف:٥٧][(٣)].

وهكذا صار يوسف عليه السلام ملكًا بعد أن كان سجينًا، وقد قال بعضهم[(٤)]:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن
وأول مفروح به غاية الحزن
فلا تيأسن، فالله ملك يوسفًا
خزائنه بعد الخلاص من السجن

ثانيًا: مجيء إخوته إليه:

لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجدب، حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، أرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة -أي الطعام- إلى مصر.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يوسف:٥٨].

أي: لما دخلوا عليه عرفهم؛ لأنه فارقهم وهم رجالٌ، ولم يعرفوه؛ لطول العهد، ومفارقته إياهم في سن الحداثة، أولاعتقادهم أنه قد هلك، ولأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة[(٥)].

(١) فتح القدير ٣/ ٤٢-٤٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢١٥.
(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٢٤.
(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٧، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٢٠.
(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٧، والبحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٩٢، وتيسير

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف:٥٩].

أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيه، فـ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ أي: إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم، ثم رغبهم في الإتيان به فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام، وبعد أن رغبهم من أجل أن يأتوه به رهبهم إن لم يفعلوا ذلك فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾ [يوسف:٦٠].

أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرةٌ، ولا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف:٦١].

أي: سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن، دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعًا به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ لما أمرتنا به[1].

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم -وهي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام- في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ [يوسف:٦٢]. أي: غلمانه الذين في خدمته: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ثم علل فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فإنهم إذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمنٍ، وأن ما دفعوه عوضًا عنه قد رجع إليهم، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم نشطوا إلى العود إليه، ولا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد والحاجة إلى الطعام، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع[2].

ثم يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم فيقول: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ [يوسف:٦٣]. أي: بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ وقرأ بعضهم (يكتل) بالياء[3]: أي يكتل أخونا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكره، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف:١٢].

ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٨، الكريم الرحمن، ص ٤٠١.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٦، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠١، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٩.

(٣) تحبير التيسير، ابن الجزري، ص ٤١٥.

﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤].

أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ وقد تقدم منكم التزام، أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ وقرأ بعضهم: (حِفْظًا)[1]، أي: خيرٌ حفظًا منكم، فإن حفظه الله سلم وإن لم يحفظه لم يسلم.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم[2].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف:٦٥]. فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي: ماذا نريد؟وأي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نجلب لهم الطعام ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: سهلٌ على الملك إعطاؤه[3].

فـ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٦٦]. أي: تحلفون بالعهود والمواثيق، ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون على دفعه، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شهيد علي وعليكم[4].

ولما أرادوا السفر إلى مصر حملته العاطفة الأبوية والرحمة الإيمانية على أن أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من بابٍ واحدٍ، ولكن ليدخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ، ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧].

وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد؛ وهذا سبب، وإلا فالأمر كله بيده الله.

ولذلك قال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه؛ فإن الله إذا أراد شيئًا لا يخالف ولا

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٩، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠١.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٩٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٢٨.

يمانع.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإنه بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [يوسف:٦٨].

قالوا: هي دفع إصابة العين لهم، وليس هذا قصورًا في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين.

ولهذا قال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إياه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء[(٢)].

ثم يذكر تعالى ما كان من أمر إخوة يوسف لما قدموا عليه ومعهم أخوه - شقيقه- وما كان من إيوائه إليه، وإخباره له سرًا عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم، وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه، فيقول: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:٦٩].

أي: لا تحزن على الأعمال الماضية التي عملوها، فإن العاقبة خير لنا[(٣)].

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم، وذلك أنه لما جهزهم وكال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، أمر فتيانه بوضع سقايته، في متاع أخيه خفية - من حيث لا يشعر أحدٌ- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ [يوسف:٧٠]. وهي الإناء الذي كان يشرب فيه الملك ويكيل به الطعام﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾. ثم لما تحركت القافلة ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى منادٍ بينهم قائلًا: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ أي: يا أهل القافلة، ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.

قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يوسف:٧١].

ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٢].

أي: صاعه الذي يكيل به، ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: أجرة له على وجدانه وهذا من باب الجعالة، والبعير هو الجمل

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٢٨، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٠.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، فتح القدير ٣/ ٥٠.

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ أي: كفيل، وهذا من باب الضمان والكفالة(1).

فأقبلوا على من اتهمهم بذلك ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف:٧٣]. بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة، فليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق».

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾ [يوسف:٧٤]. أي: ما عقوبة السارق، إن كان فيكم ووجدناه بينكم.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ [يوسف:٧٥]. أي: الموجود في رحله ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ بأن يتملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف:٧٥](2).

وهذا هو الذي أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فتشها قبله، تورية، كما قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف:٧٦].

ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزامًا لهم بما يعتقدونه.

ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم.

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر؛ لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فكان قولهم هذا: بمشيئة الله وتدبيره، وقد كان يوسف عليه السلام يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم النافع وغيره، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ فكل عالم، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة(3).

(1) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، ٣٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٠.

(2) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٣.

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣١،

قال ابن كثير: «وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحةٌ عظيمةٌ بعد ذلك: من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه»[1].

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل أخيهم ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ [يوسف:٧٧] هذا الأخ، فليس هذا غريبا منه، ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، وهذا مجرد اتهام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا، وفي هذا من الغض عليهما ما فيه.

ولهذا قال: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٧٧].

أجابهم سرًا لا جهرًا، حلمًا وصفحًا وعفوا، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ [يوسف:٧٨] أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ أي: بدله، يكون عندك عوضًا عنه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف:٧٩] أي: إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب[2].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسف:٨٠]. أي: لما يئسوا من تخليص أخيهم، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، ﴿خَلَصُواْ﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿نَجِيّٗاۖ﴾ يتناجون فيما بينهم، فـ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتردنه إليه، ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾ [يوسف:٨٠].

يقول: لقد أخلفتم عهده، وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لي وجهٌ أقابله به ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: لا أزال مقيمًا هاهنا ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ في القدوم عليه راضيًا عني، ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بأن يمكنني من أخذ أخي، ورده إلى أبي ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ لأن أحكامه لا تجري إلا على ما يوافق الحق، ويطابق الصواب.

ثم أمر إخوانه أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرًا لهم عنده، حيث قال: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف:٨١]. أي: أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٣.
قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٢.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٢.

أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، ﴿وَسْـَٔلِ﴾ إن شككت في قولنا ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فقد اطلعوا على ما أخبرناك به، ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ [يوسف:٨٢] فيما أخبرناك به،لم نكذب ولم نغير ولم نبدل، بل هذا الواقع[1].

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه حتى ابيضت عيناه، واتهمهم أيضًا في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، وقال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:٨٣].

أي: ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا خلقه وإنما ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[2].

ثم ترجى من الله أن يرد إليه أولاده الثلاثة، وأمرهم بالرجوع والبحث عن يوسف وأخيه وعدم اليأس من رحمة الله.

وامتثل الأبناء أمر الوالد ورجعوا إلى يوسف عليه السلام.

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٣، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٥.
(٢) المصادر السابقة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف:٨٨] أي: من الجدب وضيق الحال وقلة الطعام، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي: رديئة مدفوعة، لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بقبولها على رداءتها، وقيل برد أخينا إلينا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: يثيبهم على إحسانهم ويجزيهم به خيرًا[3].

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما أصابهم من الجهد والضيق، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، عند ذلك أخذته رقةٌ ورأفةٌ ورحمةٌ، فتعرف إليهم وخاطبهم قائلًا لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٩] إذ فرقتم بينهما وصنعتم ما صنعتم ﴿إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ﴾ يعني: في حال جهلكم بعاقبة ما تفعلون بيوسف، وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم[4].

قال ابن كثير: والظاهر -والله أعلم -أن يوسف، عليه السلام، إنما تعرف إليهم

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٨، أيسر التفاسير، الجزائري، ص ٢/ ٦٤١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٤٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٤.

بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح:٥-٦][1].

لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو فقالوا متعجبين مستغربين: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠] فاعترفوا بخطئهم وقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ فعفا عنهم وسامحهم، ثم أعطاهم قميصه فذهبوا به إلى أبيه فارتد إليه بصره وأمرهم أن يأتوا إليهم بأجمعهم.

لما أمرهم يوسف عليه السلام أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر، رحلوا إليه جميعًا ومعهم أبوهم فآواهم وأكرم مثواهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

أي: هذا تعبير ما كنت قصصته عليك، من رؤيتي الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر، حين رأيتهم لي ساجدين، وأمرتني بكتمانها، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠].

أي: بعد الهم والضيق، جعلني حاكمًا نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت، ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: فيما كان منهم إلي من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها[2].

ثالثًا: سؤاله حسن الخاتمة ووفاته:

لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فانٍ، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه أن يتوفاه، أي: حين يتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين، قال: ﴿۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٥.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٥.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ [يوسف:١٠١].

أي: أدم علي الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه.

﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت؛ بل كما يقال في الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين» أي: حين تتوفانا[1].

قال الحافظ ابن كثير: ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام، كما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين حيث قال:(في الرفيق الأعلى)[2].

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجزًا في صحة بدنه وسلامته، وأن ذلك كان سائغًا في ملتهم وشرعتهم ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا، فقد نهي في شريعتنا عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن؛ فقد ثبت من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يتمنين أحدكم الموت من ضرٍ أصابه، فإن كان لا بد فاعلًا، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي)[3].

أما عند خوف الفتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخبارًا عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦].

وقالت مريم لما أجاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم:٢٣].

لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوجٍ وقد حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها هذا؟، وكما في حديث معاذٍ في قصة المنام والدعاء الذي فيه: (وإذا أردت بقومٍ فتنةً، فتوفني إليك غير مفتونٍ)[4].

وتمنى الموت علي بن أبي طالبٍ، لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٦. تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٤٣٦، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلم في صحيحه، رقم ٢١٩١، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٥٦٧١، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٦٨٠، كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢١٠٩. وصححه الألباني في الإرواء ٣/١٤٧.

القتال، وكثر القيل والقال. وتمنى ذلك البخاري لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال. فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت[1].

ثم قال تعالى في ختام قصة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢].

يقول تعالى لعبده ورسوله محمدٍ، صلوات الله وسلامه عليه، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة.

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرًا عندهم ولا مشاهدًا لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي: على إلقائه في الجب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحيًا إليك، وإنزالًا عليك يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرةٌ للناس ونجاةٌ لهم في دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس.

ولهذا قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣][2].

ولما حضرت يوسف عليه السلام الوفاة، أوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام، فدفنه عند آبائه[3].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إن موسى حين أراد أن يسير ببني إسرائيل ضل عنه الطريق فقال لبني إسرائيل ما هذا؟ قال: فقال له علماء بني إسرائيل: إن يوسف عليه السلام حين حضره الموت أخذ علينا موثقًا من الله أن لا نخرج من مصر حتى تنقل عظامه معنا، فحفروا فاستخرجوا عظام يوسف)** الحديث[4].

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٩، ٦٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٤١.

(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٩.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٩، وابن حبان في صحيحه، ٢/ ٥٠٠، وأبو يعلى في مسنده ١٣/ ٢٣٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٦٢٢.

الدروس المستفادة من قصة يوسف

لقد اشتملت قصة يوسف عليه السلام على الكثير من الدروس والعبر والفوائد والهدايات مما يصعب حصره.

وقد قال الله في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

وقال: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف:٧].

وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

وكلما تأمل الإنسان في قصته استبانت له فوائد جديدة، وهذه الفوائد تتداخل وتتشابك من حيث مضمونها ودلالتها ولكني حاولت تقسيمها إلى أربعة أقسام في أربعة مطالب:

أولًا: دروس عقدية:

- الاستعانة بالله واللجوء إليه عند المحن والمصائب كماقال يعقوب عليه السلام عند فقد ولده: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]. وكما قال يوسف عليه السلام عند خوف الفتنة ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣]. «فينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]»[1].
- أن من وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢][2].
- وفيه أيضًا دليلٌ على جواز الأخذ بالأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله، وهذا واضح في عدة مواقف في هذه القصة كتخزين الأرزاق، والأخذ بالأسباب الدافعة للعين وغيرها[3].
- عناية الله بأوليائه المؤمنين ولطفه بهم، وتأييدهم عند الضعف والتفريج عنهم عند الكرب: فقد لطف الله بيوسف عليه السلام في البئر حيث حفظه وأمنه ونجاه منها، وهيأ له من يكرمه بمصر، وحين عصمه من فتنة المرأة، وحين صبره في السجن وهيأ له

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٤١٠.
(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٠.

الخروج منه، وبرأه مما رمي به، ومكن له في الأرض، إلى غير ذلك من مظاهر تأييد الله له وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧]. وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج:٣٨]. وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢]. وغيرها من الآيات.

- حسن الظن بالله وعدم اليأس من رحمة الله ومن تحقيق الآمال مهما كانت الأحوال؛ فيعقوب عليه السلام فقد ولده يوسف عليه السلام زمانا طويلًا ولكنه لم ييأس فحقق الله له ما رجا.
- أن الله على كل شيئ قدير وأنه يكرم من يشاء من عباده بما شاء:فقد رد الله ليعقوب عليه السلام بصره بعد ذهابه، وأوصل إليه ريح يوسف من مكان بعيد، ومكن ليوسف عليه السلام على عكس ما كان يخطط إخوته! ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].
- أن العصمة من الزلل والثبات على الحق إنما هو بتوفيق الله و تسديده كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف:٢٤]. ولذلك ينبغي أن يطلب منه العون دائمًا وأن يتبرأ العبد من حوله وقوته كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]. قال تعالى ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٤].
- أن من اتهم بشيئ و هو بريئ فسيبرئه الله تعالى عاجلًا أم آجلًا؛كما برأ الله يوسف عليه السلام على رؤوس الأشهاد، وبرأ موسى عليه السلام لما اتهمه قومه، وبرأ مريم عليها السلام بأن أنطق عيسى عليه السلام في المهد، وبرأ الله عائشة رضي الله عنها بآيات تتلى إلى يوم القيامة في سورة النور، وقد قال لها النبي صلى الله عليه وسلم قبيل براءتها: (فإن كنت بريئةً، فسيبرئك الله) فنزلت براءتها [(١)].
- وفي قصة يوسف عليه السلام دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ما جاء به حق لا ريبة فيه؛ حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٦٦١، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٧٧٠، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف.

دارس أحدًا [١].

- أن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا؛ فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة [٢].
- البدء في دعوة المشركين بتوحيد الله تعالى؛ كما فعل يوسف عليه السلام مع الفتيين في السجن.
- الإيمان بالمبدأ، وصلابة الاعتقاد سبيل لتخطي الصعاب، والترفع عن الدنايا، وذلك هو الذي جعل ليوسف نفسًا كريمةً، وروحًا طاهرة، وعزيمة صماء لا تلين أمام الشهوات والمغريات [٣].
- أن الله عز وجل يؤيد المظلوم ولو بعد حين؛ كما حصل ليوسف حين برأه الله ورفعه على إخوته.

ثانيًا: دروس تربوية وسلوكية:

- الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، أخذ هذا من قول يعقوب عليه السلام لابنه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ [يوسف:٥] [٤].
- أن من آداب الرؤيا: أن لا يخبر بها المرء إلا من يحب وذلك إذا رأى ما يسره، أما إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها أحدًا، قال يعقوب عليه السلام لابنه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ [يوسف:٥]. وفي الحديث (الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثًا، ولا يحدث بها أحدًا، فإنها لن تضره) [٥].
- خطورة الحسد: وأنه يزرع العداوة والبغضاء، ويفسد العلاقات، ويحمل على الظلم والعدوان والكيد والتآمر وتمني زوال النعمة؛ غير أن صاحبه أول من ينال جزاءه: فيوسف عليه السلام حسده إخوته فرفعه الله عليهم.
- عداوة الشيطان للإنسان، وأن من أساليبه: الحسد والتحريش ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف:٥].
- تجنب إظهار الميل إلى بعض الأبناء دون بعض فقد يولد ذلك الحسد بينهم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٤١١.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ١٢/ ١٩٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٧٠٤٤، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٢٦٢، كتاب الرؤيا.

خاصة بين أبناء الضرائر [(١)].

- الحذر من شؤم الذنوب والمعاصي؛ لأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا متعددة؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، وغير ذلك وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة [(٢)].
- ليس كل من بكى فهو مظلوم؛ فإخوة يوسف ألقوه في البئر ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ [يوسف:١٦].
- أنه ليس كل من سجن فهو متهم أو مجرم بل قد يسجن البريء ظلما وعدوانا كما حصل ليوسف عليه السلام.
- بركة الطاعة وحسن عاقبتها: و«أنها تثمر الرزق والأجر في الدنيا ولا ينقص ذلك من ثواب المؤمن عند الله شيئا، كما قال تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦]» [(٣)].
- فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب، لقوله: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠][(٤)].
- أن الصبر من أعظم المسليات عند المصيبة؛ كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].
- وأن الشكوى إلى الله لاتنافي الصبر، وكذلك الشكوى للمخلوق على غير وجه التسخط؛ كما حصل من إخوة يوسف حين شكوا ما مسهم من الضر فلم ينكر عليهم.
- فضيلة الإخلاص وأنه سبب للوقاية من الفتن والعصمة من الشهوات و«أن من دخل الإيمان قلبه،وكان مخلصا لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه،وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]» [(٥)].
- أنه ينبغي للعبد الفرار من أماكن الفتن والمعاصي؛ ليتمكن من التخلص

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) النكت الدالة على البيان، القصاب ١/ ٦١٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٩.

منها؛كما فعل يوسف عليه السلام حين راودته المرأة [(١)].

- أن المؤمن مبتلى وأن ذلك لحكم عظيمة؛ كما حصل ليوسف عليه السلام بعد الابتلاء من الرفعة وعلو المنزلة، وقد سئل الشافعي رحمه الله أيما أفضل للرجل، أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى [(٢)]».
- البدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله؛كما فعل يوسف عليه السلام مع الفتيين حيث دعاهما إلى التوحيد قبل تعبير رؤياهما، وأنه ينبغي للمسئول أن يدل السائل على ما ينفعه مما يتعلق بسؤاله؛ فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وطرق تخزينها [(٣)].
- أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن [(٤)].
- أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولى، ليحدث لذلك شكرا كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠] [(٥)].
- فضيلة العفو والصفح وأنه من أخلاق الأنبياء والرسل كما تجلى ذلك في عفو يوسف عليه السلام عن إخوانه، وعفو أبيهم عنهم كذلك، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].
- الأدب مع الوالدين وتوقيرهما وعدم الترفع عليهما واستشارتهما، كما فعل يوسف عليه السلام مع والديه حين أجلسهما على العرش، وحين كان قبل ذلك يستشير والده حتى فيما يراه في المنام.
- الحرص على الدعاء بحسن الخاتمة والوفاة على الإسلام، كما فعل يوسف عليه السلام.

ثالثًا: دروس فقهية:

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

- أنه يجوز أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلًا في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب عليه السلام قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له [(١)].
- أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما؛ فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضا، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف:١٠]. كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير [(٢)].
- خطورة الخلوة بالنساء، وأنها مثار الفتنة؛ فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسف، ولذا حرمها الإسلام [(٣)].
- أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبها، قال الشنقيطي: «وهذه الآيات المذكورة أصلٌ في الحكم بالقرائن» [(٤)].
- جواز طلب الولاية لمن حسن مقصده وعلم من نفسه الأمانة والكفاءة، ولا يوجد من هو خيرٌ منه للقيام بها؛ كما فعل يوسف عليه السلام [(٥)].
- أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال، إذا جهل أمره، وكان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥] [(٦)].
- جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب أو فعل محرم، وجواز استعمال المعاريض القولية والفعلية وأنها مندوحة عن الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ [يوسف:٧٩]. ولم يقل: (من سرق متاعنا) [(٧)].
- مشروعية الجعاله وهي: عقد على منفعة يظن حصولها، كمن يلتزم بجعل معين لمن يرد عليه متاعه الضائع، أو يحفر له هذه البئر، والأصل في

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٧.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٩.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢١٦.
(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٠.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.
(٧) المصدر السابق، ص ٤١١.

مشروعيتها قول الله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:٧٢][1].

- أن شرع من قبلنا ليس شرعًا لنا إذا جاء في شريعتنا ما ينسخه: «فالقطع في السرقة ناسخٌ لما تقدم من الشرائع؛ إذ كان في شرع يعقوب استرقاق السارق، وكان سلامهم بالانحناء، وقد نسخ الله في شرعنا ذلك»[2].

رابعًا: دروس عامة:

- فضيلة العلم وشرفه:، فإن يوسف عليه السلام بسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض[3].
- تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بما لقيه يعقوب ويوسف- عليهما السلام- من آلهم من الأذى، وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه[4].
- أن الرؤيا إذا عبرت وقعت، لقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١]. ولأن النبي صلى الله عليه وسلم: قال:(**الرؤيا على رجل طائرٍ ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت**)[5]. ولذلك ينبغي أن نعبرها بالخير والمعاني الطيبة.
- أن الرؤيا قد تتأخر فلا يظهر مصداقها إلا بعد السنين العديدة[6].
- وفيها: أصل لتعبير الرؤيا، وأن علم التعبير من العلوم المهمة، التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وأنه داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١]، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم، وأن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة[7].
- أنه قد تقع الرؤيا الصادقة من بعض الكفار -على سبيل الندرة- كرؤيا الملك والفتيين، ولا سيما إذا تعلقت بمؤمنٍ، أوكانت آيةً لنبيٍ[8].
- أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٦]. ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٦.
(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٦٩- ٧٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٩٩.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٥٩٥.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٧.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٤.

والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف [1].

- أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين [2].
- استغلال أي فرصة للدعوة إلى الله تعالى حتى في السجن كما فعل يوسف عليه السلام.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأخوة، البنوة، التبني، التمكين، الحسد، الرؤيا، السياسة، النبوة

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٨.
(٢) المصدر السابق.